

حضارة تُبنى على الجسد وتنهار في الإنسان

ليست كل حضارة تقدماً، ولا كل ما يلمع دليلاً رُوقياً. فـمَمَّة حضارات تخدم من الداخل حين تُفرغ الإنسان من قيمته، وتحوّل الجسد إلى سلعة، والأخلاق إلى عناوين، والحياة إلى ٌهمة.

أخطر ما أصاب الإنسان المعاصر ليس الفقر ولا الجهل، بل تطبيع الانحطاط ومنحه صفة الحرية. فحين تقدماً المتاجرة بالجسد حقاً، ويسوق الانفلات الأخلاقي على أنه تحرر، تكون أمم انقلاب في المعايير. ولم يعد هذا الاختيار حبيس الهاشم أو الظل، بل تسليلاً إلى قمة الهرم السياسي نفسه. مما ظهر في وسائل التواصل، ومن خلال الإعلام، من صور وتسليات فاضحة منسوبة لحكام ورؤساء دول تصنف ضمن الدول العظمى، يكشف وجهاً صادماً للتناقض الصارخ بين الخطاب والممارسة. أولئك الذين ينصبون أنفسهم أوصياء على القيم، ويتصدرون نموذج "التحضر" ظاهرياً، يمارسون سلوكيات لا تنتهي إلا لمنظومة ترى في الجسد متعة عابرة، وفي السلطة حصانة.

القضية هنا ليست فضيحة أخلاقية بقدر ما هي فضيحة حضارية، حين يسقط رأس الهرم قيمياً. إن الحضارة التي تفصل التقدماً المادي عن القيم، وتمحو القوة بلا إنسانية، لا تُنتج قدوة، بل تصنع طاغياً منحرفين: حضارة تبيع كل شيء في الخفاء، ثم تُحرّم الضعفاء في العلن، حضارة تحرّر الشهوة وتُثبّت المشاعر. ومن ارتدى ثوب التقدماً وهو عاري من القيم، فليس حضارة، بل سقوط أخلاقي وإفلاس روحي. وإذا كان الانحلال في المجتمعات نذير خطر، فإن الأخطر منه أن يتسلل إلى قمة الهرم السياسي.

إن هذه الممارسات المكشوفة، بما تحمله من إفراط وانفلات وتجزيف الآخرين من كرامتهم، تؤكّد أن ما يُسمى الحرية الغربية، حين تنفصل عن الأخلاق، تنحدر إلى بحيمية مفجعة: حرية لا تعرف حدوداً، ولا تعترف بالحياة، ولا ترى في الإنسان إلا جسداً قابلاً للاستهلاك.

ما نشهده اليوم ليس فضائح أفراد، بل انكشاف منظومة تمتلك القوة، لكنها فقدت المعنى.

لقد بات العالم اليوم أكثر من أي وقت مضى في أمس الحاجة إلى حضارة تعيد للإنسان قيمته، وللجدل حرمتها؛ حضارة لا ترى الإنسان آلة إنتاج، ولا جسداً للاستهلاك، ولا رقمًا في السوق، بل كائناً مكرّماً له غايته ورسالته. حضارة لا يوصفها خطاباً عظياً، ولا ذاكرة تاريخية، بل مشروعًا حضارياً متكملاً يمزج بين الروح والمادة، ويوازن بين الحرية والمسؤولية، ويجعل القيم النبيلة شرطاً للتقدماً لا عائقاً أمامه. حضارة لا يكون فيها الإنسان "حيواناً متطرّفاً"، بل مخلوقاً مكرّماً، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرِمَنَا بَنِي آدَم﴾، حضارة لا يكون فيها الإنسان كائناً تائهاً بلا غاية، ولا عبداً لشهواته، بل صاحب إرادة كما أراده الله أن يكون: خليفة في الأرض، مستخلفاً لا متسلطاً.

إن العالم الذي أرهقته الأزدواجية، وفضحته تناقضات قادته، واحتقن تحت وطأة حضارة استهلاكية بلا روح، بحاجة إلى نموذج يعيد التوازن؛ نموذج لا يرفع شعار الحرية ليبرر الانحلال، ولا يرفع شعار القيم ليُكِرِّس الاستبداد. فالحضارة الإسلامية ليست مشروع هيمنة، بل مشروع إنقاذ للإنسان والمجتمع من التفكّك والضياع، وللسياقة من الانفصال عن الأخلاق. وحين تُحفظ كرامة الإنسان، وتُضبط الشهوة بالقيم، وتُربط السلطة بالأمانة، حينها فقط يمكن أن تحدث عن حضارة.

كتبه لإذاعة المكتب الإعلامي المركزي لحزب التحرير

مؤنس حميد - ولاية العراق